﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤﴾ [نوح: 1 - 4]

❁ مُناسَبَةُ مطلعِ السّورةِ لخاتمة ما قبلها:

تأكيد الإنذار الشَّديد بمصير الأمم المكذِّبة

بعد أن خُتِمَت سورةُ المعارجِ بالإنذار الشَّديد للكفّار بعذاب الدُّنيا والآخرة؛ جاءت سورةُ نوحٍ لتُقدِّم أعظمَ مثالٍ للعذاب الذي حلَّ بأمَّة في الدُّنيا؛ بسببِ تكذيبِ الرُّسل، وقصَّةُ نوح ﷺ تأكيدٌ لحلول الوَعْدِ الإلهيِّ باستئصالِ الكفَرَةِ والمُعانِدين[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنذِرۡ﴾: أصلُ (نذر) يدُلُّ على تَخويفٍ أو تَخوُّفٍ، ومنه الإنذارُ، وهو الإبلاغُ، ولا يكادُ يكونُ إلّا في التَّخويف[2]، والتَّناذُرُ: إنْذارُ بَعْضِهم بَعْضًا[3]، والنُّذُرُ: جَماعةُ النَّذيرِ (الرُّسُل)، والنَّذير: الاسْم من الإنْذار[4]، وهو مَن يُخبِر غيرَه بأمرٍ مخوفٍ حتَّى يحذَره[5]، والإنذارُ هنا معناه: الإخبارُ بما فيه تَوَقُّعُ ضُرٍّ، وضِدُّهُ البِشارةُ[6]، والمُراد: خَوِّف قومَك، وحذِّرهم[7].

2) ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ﴾: أصلُ (أخر) يدلُّ على خلافِ التَّقَدُّمِ[8]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 423.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (نذر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نذر).
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/ 137.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 372.
(7) الخازن، لباب التأويل: 4/ 344.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخر).

ومنه التَّأخيرُ: فِعلُ الشَّيءِ آخِرًا بَعدَ أجَلِهِ، والآخِرُ ضِدُّ الأوَّلِ، والتَّأخيرُ: التَّأجيلُ، وضِدُّ التَّأخيرِ: التَّقديمُ والتَّعجيلُ[1]، والتَّأخُّرُ: التَّخلُّفُ سواء كان في المكانِ أو الزَّمانِ، يُقالُ: تأخَّر عن عَمَله أي: تَخلَّفَ عنه، وتأخَّر عن مُنافِسه؛ إذا جاء بَعْدَهُ في المكان أو الزَّمان، والتَّأخيرُ في الآية ضِدُّ التَّعْجيلِ، وهو التَّمديد والتَّوسيع في أجَلِ الشَّيءِ، المُرادُ به هنا: عَدَمُ استئصالهم[2].

3) ﴿أَجَلٍ﴾: أصلُ الأجَلِ: غايَةُ الوقْتِ في مَحَلِّ الدَّيْنِ وغيره، يُقال: أجِلَ هذا الشَّيءُ، وهو يأْجَلُ، والاسمُ: الآجِلُ نَقيضُ العاجِلِ، والأجيلُ: المُرْجَأُ، أي: المُؤَخَّرُ إلى وقْتٍ، والآجِلَةُ: الآخِرَةُ[3]، يُقالُ: دَيْنُهُ مُؤَجَّلٌ، وقد أجَّلْتُهُ: جعلتُ له أجَلًا، ويُقالُ للمُدَّةِ المضروبة لحياة الإنسان أجَلٌ، فيُقال: دنا أجلُه، عِبارة عن دنوِّ الموت[4]، وقَولُهُم: (أجَلْ) في الجوابِ، هو مِنْ هذا البابِ، كأنَّهُ يُريدُ انتهَى، وبَلَغَ الغايَةَ[5]، والمقصود بالأجَل في الآية: المُدَّةُ المُعيَّنةُ لفعْلٍ ما[6].

4) ﴿مُّسَمًّى﴾ المُسَمَّى: مَأخوذٌ مِنَ الاسم، وهو: ما يُعرَفُ به ذاتُ الشَّيءِ، وأصلُهُ مِنَ السُّموِّ، وهو: العُلوُّ والارتِفاعُ، يُقال: سَما، يَسْمو، سُموًّا؛ إذا ارْتَفَعَ، وسَما به، وأسْماهُ: أعلاهُ، وإنَّما جُعِلَ الاسمُ تَنويهًا على الدَّلالَةِ على المَعنى؛ لأنَّ المَعنى تَحتَ الاسم[7]، والمقصود بالمُسَمَّى: المُعَيَّنُ؛ لأنَّ التَّسميَةَ تَعيينُ الشَّيءِ، وعليه يكون معنى الأجَل المُسَمَّى في الآية: الأجل المُعيَّن بتقدير الله عند خِلْقَةِ كُلِّ أحَدٍ منهُم[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول الله تعالى: إنّا أرسلنا نوحًا إلى قومِه، وقلنا له: حذِّر قومَك وأنذِرْهُم العذابَ على شِرْكِهم وكُفْرِهم، ثمَّ أخْبِر امتثالَ نوحٍ ﷺ، فقال لقومِه داعيًا لهم: يا قومي إنّي

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أخر).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 189 - 190.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل).
(4) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أجل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 191.
(7) ابن منظور، لسان العرب: (سما).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 191، 29/ 190.

أُنْذِرُكم عذابَ اللّه تعالى فاحذروا أن يَنْزِلَ بِكُم على كُفْرِكم بهِ، وإنّي رسولُ اللّهِ إليكم، فاعْبُدوه وحده، وأطيعوني فيما آمُرُكم به، وأنهاكُم عنه، فإن أطَعْتُموني وآمنتُم باللّهِ تعالى؛ فإنَّه يَصْفَحُ عن ذنوبكم، ويمدُّ في أعماركم إلى وقتٍ مقدَّر في عِلْمِ اللّه تعالى، فإنَّ الموت إذا جاءَ؛ لا يُؤَخَّر أبدًا، لو كنتم تعلمونَ ذلك؛ لسارَعْتُم إلى الإيمان باللّه تعالى وطاعَتِه[1].

إنذارٌ ووعيد من أجَلِ الله تعالى المحتومِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغَةُ افتتاح الكلامِ بالتَّوكيد:

افتتح النَّظمُ الجليل الجملةَ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾، بالتَّأكيد للاهتمامِ بالخبَر والتَّنبيه عليه؛ إذْ ليس هناك ما يُنْكِرُه عليهم، ولم يتقدَّم شكٌّ ليَنْقُضَهُ بأسلوب التَّأكيد، فتخلَّصَ الخبَرُ للاهتمام بالمضمونِ، وهذا أسلوبٌ من أساليب بلغاء العرب[2]، ويجوزُ أنَّ التَّوكيد "لأجل إنكارهم أن يكون الرَّسول بشرًا، أو لتنزيلِهم منزلَةَ المُنْكِرين من حيثُ أقرّوا برِسالَتِه، وطَعَنوا في رسالَةِ غيرِه مَعَ المُساواةِ في البشريَّة"[3].

تعظيمُ الخبَر ولَفْتُ الانتباه إلى المَضْمونِ

وعُبِّر بنونِ التَّعظيم؛ لمزيد الاهتمام، ولبيان أنَّ الخبر ذُكِرَ بما للّهِ تَعالى من عظمةٍ غالبةٍ باهرةٍ[4].

دلالَةُ التَّعْبير بالإرسالِ:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالإرسالِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾؛ لدلالة الإرسالِ على مَعْنى الرِّفق، وتحمُّل الرِّسالة[5]، فنوحٌ عليه السلام حُمِّل برسالة التَّوحيدِ لقومه، وهو مبعوثٌ للرِّفق بهم.

تحمُّل الرِّسالةِ المُتَضَمِّنَةِ الرِّفقَ بالنّاس

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 245، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 570.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 186.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 423.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 424.
(5) الراغب، المفردات: (رسل).

دلالَةُ إسنادِ فِعْلِ الإرسال إلى نونِ العظَمَةِ:

تفخيمُ الرِّسالة وتعظيمُ المرسِل

أسْنَد النَّظم القرآنيُّ فِعلَ الإرسالِ إلى نونِ التَّعظيم، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا﴾؛ للدَّلالة على أنَّه أرسَلَهُ بِما لَهُ تعالى مِن عظمَةٍ وجلالٍ[1]، وفيهِ تفخيمٌ لشأن الإرسال، فهو إرسالٌ عظيمٌ؛ لتضمُّنه الرِّفقَ والخيرَ للنّاس.

دلالةُ تقييدِ الإرسالِ بشِبهِ الجُملَةِ:

تخصيصُ المقصودِ بالرِّسالة وحَصْرُ التَّكليفِ

(إلى) حرفٌ دالٌّ على انتهاء الغايةِ المكانيَّة، وقد قيَّد النَّظم الجليلُ فِعْلَ الإرسالِ بشِبْهِ الجملة ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم هُم المقصودون بالرِّسالة، وأنَّ رسالَتَهُ مقصورَةٌ عليهم[2]، فالإرسالُ مخصوصٌ بهم دونَ غيرِهم، فَهُم المُخاطَبونَ ابتداءً، وهُمُ المكلَّفون بالاستِجابَةِ للرِّسالَةِ.

دلالَةُ التَّعبير بلَفْظِ (قوم) مضافًا إلى الضَّمير:

القُرْبُ والنَّسَبُ مَظِنَّةٌ للقَبول

جاءَ التَّعبيرُ بلفظِ القَوْمِ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم "كانوا في غايَةِ القوَّة على القيامِ بِما يُحاوِلونَهُ، وهُم بصدَدِ أن يُجيبوهُ إلى ما دَعاهُم إليه، ويُكْرِموه؛ لِما بينَهُم مِنَ القُرْبِ بالنَّسب واللِّسان"[3]، فكونه مِنهُم أحْرى بقَبولِ دَعْوَتِه.

معنى ﴿أَنْ﴾ ودلالَةُ التَّعبيرِ بها:

كشْفُ مضمونِ الرِّسالَةِ

عبَّر النَّظم الجليلُ بـ ﴿أَنْ﴾، في قوله ﷻ: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وهي صالحةٌ أن تكونَ مصدريَّة وتفسيريَّة[4]، أمّا كونُها تفسيريَّة؛ فهي تفسِّر فعلَ الإرسالِ الذي قبلها؛ لأنَّ فِعْلَ الإرسال يتضمَّن مَعْنى القولِ دونَ حُروفِه[5]، وأمّا كونُها مصدريَّةً؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 424.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 293.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 424.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 280.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 186.

فذلك على تقدير حَذْفِ حَرْفِ الجَرِّ، أي: أرسلناهُ بِأنْ قُلْنا له: أنْذِر، أي: أرسلناهُ بالإنْذارِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بِفِعْلِ الأمْرِ:

تقريرُ وجوبِ الإنذار وبيانُ تكليفِ النُّبوَّة

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بفعْلِ الأمْرِ ﴿أَنذِرْ﴾، في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ للدَّلالة على وُجوبِ الإنذارِ على نوحٍ ﷺ، فقد أُمِرَ بتحذير قومه، وتبليغِهم بهَذا المآلِ، وتخويفِهم مِن عاقبة التَّكذيب والشِّرك[2].

دلالَةُ التَّعبير بلفظ (قوم) مضافًا إلى الضَّمير:

إلهابُ الدّاعي للبَذْلِ بالنُّصْحِ والدَّعوة

أضاف البيانُ القرآنيُّ لفظَ القومِ إلى ضمير المُخاطَب، في قولِه سُبحانَهُ: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾؛ للدَّلالة على خصوصِ رسالَتِه بِهِم، ولأنَّه واحدٌ مِنهُم، وفيهِ إلهابٌ لنوحٍ ﷺ؛ ليكون شديدَ الحِرْصِ على دَعْوَتِهِم والسَّعي لنَجاتِهم مِنَ العذاب، فهُم قرابتُه وأهلُه وأحِبَّتُه[3].

سِرُّ التَّقييدِ بِشِبْهِ الجُمْلَةِ: ﴿مِن قَبْلِ﴾:

الدَّعوة واجِبَةٌ على وجْهِ المُبادرَةِ والتَّعجيل

﴿مِن﴾ حرفٌ دالٌّ على ابتداءِ الغايةِ الزَّمانيَّة، وتفيدُ هنا تأكيدَ القَبْليَّة، و﴿قَبْلِ﴾: ظَرْفُ زمانٍ يُؤْذِن بأنَّ العذاب مؤقَّت بوَقْتٍ غيرِ بعيدٍ، فلَهُ أجلٌ مُبْهَمٌ غيرُ بعيدٍ[4]، وقيَّد النَّظم الجليلُ الإنذارَ بشِبْهِ الجملة ﴿مِن قَبْلِ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ للدَّلالة على وُجوبِ الدَّعوة على وجْهِ المُبادرَةِ بِها بلا توانٍ[5]، وحثِّهم على الإيمان قبلَ حُلولِ العذاب وفواتِ الأوانِ.

دلالَةُ التَّعبير عَنِ الإتيانِ بالمَصْدَرِ المؤوَّل:

تجدُّدُ العذابِ وإحاطَتُهُ بالمنذَرين

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بالمَصْدَر المؤوَّل دون الصَّريح، في قوله ﷺ:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 649.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 424.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 187.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 191.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 293.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ للدَّلالة على تجدُّد مَجيئِهِ ودوام إيلامِهِ لَهُم؛ وذلك لِما في المَصْدَرِ المؤوَّل مِن دلالةٍ على التَّجدُّد والدَّوام لتركُّبه مِن (أنْ) والفعلِ المُضارِعِ، والتَّعبيرُ بالإتيانِ دونَ أن يَرِدَ البيانُ القرآنيُّ: (من قبل أن ينزلَ بهم) - مثلًا - يدلُّ على أنَّه يَقْصِدُهُم، ويَنْزِلُ بسبَبِهم، وأنَّه يأتيهم مِن كلِّ الجهات[1]، وفي المصدَرِ المؤوَّل - ولا سيَّما مع (أنْ) - دلالةٌ على الجدَثِ مجرَّدًا دونَ احتمالِ شيءٍ زائدٍ عليه، ففي (أنْ) تحصينٌ من الإشكالِ، وتَخْليصٌ لَهُ مِن شوائب الإجمال، فالمرادُ: حدَثَ الإتيانُ دونَ التَّعرُّض لهيئاته أو كَيْفيّاته.

سِرُّ إيثارِ فِعْلِ الإتيانِ:

التَّلويح بالعَذاب مِن وسائِلِ الإنذارِ

الإتيانُ: مجيءٌ فيه سُهولَةٌ، ويُطْلَقُ باعتبار القَصْدِ، بخلافِ المجيءِ؛ فإنَّه يقال اعتبارًا بالحُصول[2]، ومِن هنا فإنَّ التَّعبير بفِعْلِ (الإتيان) أنسَبُ للمَقام من حيثُ بيانُ قصْدِ وقوع العذابِ ويُسْرِ تحقُّقِه، وهو أنسَبُ هَهُنا مِن الجَزْمِ بحَتْميَّة وُقوعِه الذي يُناسِبُهُ فعلُ المجيءِ.

دلالة التَّعبير بالضَّمير الغائب:

اختصاصُ العذابِ بالمكذِّبين دون سواهُم

عبَّر النَّظم الجليل عن القوم بضَمير الغائبِ، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ لحوق العذاب بهم دونَ سِواهُم، فأعادَ الضَّميرَ على المذكورينَ قبلُ في ﴿أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾.

دلالَةُ الاستعارَةِ بِنِسبَةِ الإتيانِ إلى العذابِ:

العذابُ آتٍ لا محالَة

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بإسنادِ الإتيانِ إلى العذاب، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، على طريقة الاستعارةِ؛ إذ شُبِّهَ العذابُ بشَخْصٍ مِنْ شأنِهِ القدوم والإتيانُ، وهيَ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 293.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 293.

استعارةٌ مكنيَّةٌ، والغرضُ مِنْها تهويلُ العذابِ بجَعْلِهِ مُجسَّدًا، وإبرازُ المعنى في صورةٍ حسّيَّةٍ؛ ليكونَ أرسخَ في الذِّهنِ وأقربَ إلى الفَهْمِ، وأشدَّ في الرَّدْعِ والتَّخويف.

دلالَةُ تنكيرِ لفظِ ﴿عَذَابٌ﴾:

عـذابٌ المعرِض عن الإيمانِ بالغٌ شديد العِظَم

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عَن العذابِ مُنكَّرًا، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لِما في التَّنكير من دلالَةٍ على التَّعظيم والتَّفخيم، فهو مبالغَةٌ في شأنِ العذاب المُحَذَّرِ منه، وكيف لا يكونُ في غاية التَّعظيم، وهو عذابٌ بالطَّوفان في الدُّنيا، وعذابُ الجحيم في الآخرة[1]؟ فاجتَمَعَ لهُم إغراقٌ وإحراقٌ، كما قال سُبحانَهُ: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾.

دلالَةُ وصْفِ العذابِ بالأليمِ، ونُكْتَةُ التَّعبير عنه بصيغة (فعيل):

لا يُناسِبُ الكفرَ إلّا عذابٌ شديدُ الإيلامِ

وَصَفَ النَّظم القرآنيُّ العذابَ بأنَّه أليمٌ، في قوله سُبحانَهُ: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه عذابٌ شديدُ الإيلام والإيجاع، وذلك لمُناسبَةِ أعمالِهم الخَبيثَةِ مِن الكُفْرِ وغيرِه[2]، وعُبِّرَ بها بصيغَةِ المُبالغَةِ (فعيل)؛ لِما فيهِ مِن إظْهارٍ لقَسْوَةِ العذاب وشدَّة وقْعِه على أجسادِهم وأرواحِهم.

بلاغَةُ فَصْلِ جُمْلَةِ القولِ:

بيانُ الاستجابة بـعـدَ الأمـر بتكليفِ الدَّعوة

فصَلَ البيانُ القرآنيُّ الجملةَ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، سيقت للجواب عَن سؤالٍ نشأ من حكاية إرسالِ نوحٍ ﷺ، فكأنَّه قيل: ما فعلَ نوحٌ ﷺ عند إرساله إليهم[3]؟ فجاء الجوابُ في قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، والتَّعبير بفعل القول ماضيًا يدلُّ على تحقُّقِ وقوع الفعلِ، وفيه أيضًا دلالَةٌ على الجَهْرِ بالكلامِ وإعلانِهِ، والتَّصريح بهِ.

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 29/ 179.
(2) القنوجي، فتح البيان: 14/ 329.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 36.

دلالةُ التَّعبير بأسلوب النِّداءِ، ونُكْتَةُ استعمال حرف النِّداء (يا):

استعطافٌ وتلطُّفٌ قَمينٌ بسماعِ الدّاعي

عبَّر النَّظم الجليلُ بأسلوب النِّداء، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾، وذلك لتنبيهِ قومه إلى قولِه، وطلبِ إقبالِهم عليه، وتنبيهًا على أهمّيَّة مضمونِ الخطابِ المتلوِّ عليهم[1]، كما أنَّه يتضمَّن إظهارَ الودِّ والاستعطافِ برِفْقٍ ولينٍ؛ ليكونَ أجلبَ لقومِهِ إلى دَعْوَتِه[2].

وقد استُعمِلَ في ندائِهم حرف النِّداء (يا)، وهو موضوعٌ في الأصلِ لنداءِ البعيدِ، مَعَ أنَّ خطابَهُم وقتَ الدَّعوة يكونُ مِنْ قُرْبٍ؛ وذلك رفعةً لشأنِهم بالخطابِ؛ ليكونَ أدْعى إلى تليينِ قلوبِهم؛ لما يدعوهُم نوحٌ عليه السلام إليه.

نكتَةُ تكرار لفظِ (قوم) مضافًا إلى ضميرِ المتكلِّم:

رابطة القوميَّة مظنَّة لقبولِ الدَّعوة وإظهارِ الشَّفَقَة

آثر النَّظمُ الكريمُ مُخاطبتَهُم بلَفْظِ القوميَّة وتكرارِ هذا اللَّفظ، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾؛ وذلك لتمهيد قبولِ نصيحته؛ إذ إنَّ الرَّجل لا يَبْغي لقومه إلّا ما ينفعُهم، وما يريد لنَفْسِه[3]، وأضافهم إلى ضمير المتكلِّم - وهو هنا محذوفٌ تخفيفًا، والأصل: (يا قومي) - بأن نسَبَهُم إلى نَفْسِه؛ إظهارًا لكمالِ الشَّفقة عليهم، وتلطُّفًا بهِم[4].

بلاغة التَّوكيد بـ (إنَّ) وتوالي المؤكِّدات:

المرءُ عدوُّ ما يجهل، والإنكارُ فعلُ مَن يَغفَل

صدَّرَ نوحٌ عليه السلام دعوتَه في جملةِ مقولِ القول: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾، بحرف التَّوكيد (إنَّ)؛ وذلك لأنَّ المخاطَبين يتردَّدون في الخبر[5]، ولا يأبَهون لمَضْمونِه؛ إذ إنَّ "مِن طَبْعِ البشر إنكارَ ما لَم يُعلَم، إلّا من عصمَ اللّهُ، فَجَعَلَهُ منقادًا للإيمان بالغيبِ"[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 188.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 29/ 180.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 188.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 541.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 188.
(6) البقاعي، نظم الدّرر: 20/ 426.

تأكيدُ الخطابِ يُظْهِرُ الحِرْصَ ويؤكِّدُ الصِّدْقَ

ومِن شدَّة حرصِهِ ﷺ على دعوَتِهم؛ جَمَعَ في صَدْرِ دَعْوَتِهِ لهُم ستَّةَ مؤكِّدات - ليس جميعُها بالمعنى الاصطلاحيِّ للتَّوكيد - وهي: التَّأكيد بالنِّداء، ونداؤُهم بلفظِ القوم، وإضافَتُهُ إلى نَفْسِه، وافتتاحُ الجُمْلَة بحرفِ التَّأكيد (إنَّ)، وبلامِ التَّعليل، وبتقديمِ شِبْهِ الجُمْلَة[1]، وذلك ليشير لهُم بأنَّه في غاية الحرص على دعوتهم وإظهار صِدْقِه في ذلكَ.

دلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرور ﴿لَكُمْ﴾:

فائدة الإنذار خاصَّة بالمَدْعوّين

اللّام في القَيْدِ ﴿لَكُمْ﴾ للتَّعليل[2]، وفيها مَعْنى الاختصاص أيضًا، فإنذارُه ﷺ لأجلهم، وهو مُخْتَصٌّ بهم، وقدَّم النَّظم الجليل شبه الجملة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، فلم يقل: (إنّي نذير مبين لكم)؛ للدَّلالة على أنَّ مقصود الدَّعوة هو المخاطَبين، وأنَّ الفائدة من ذلك لهم لا للدّاعي[3]، والتَّعبير عن كون الفائدة مختصَّة بهم ترغيب لهم بالإقبال على الدَّعوة.

دلالَةُ التَّعبير بالإنذارِ مادَّةً وصيغَةً:

التَّخويفُ إيقاظٌ للغافِل عَن سوءِ المآلِ

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن الإنذار بصيغةِ التَّنْكير، في قولهِ جلَّ شأنُه: ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ للدَّلالة على إخْبارِهِ إيّاهم بما يُخَوِّفُهم[4]، وجاء التَّعبيرُ بصيغَةِ (فعيل)؛ للدَّلالة على المبالغَةِ في الإنذار، أي: مبالغ في الإنذارِ والتَّخْويف[5]، والتَّنكيرُ دالٌّ على كمالِ المُبالغَة والتَّعْظيم.

دلالَةُ الوَصْفِ بلَفْظِ ﴿مُّبِينٌ﴾:

لا تقوم الحجَّة إلّا بكمالِ البيانِ

عبَّر النَّظم الجليلُ بصِفَةِ المُبين، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ لدلالَةِ البَيانِ على الإيضاحِ والظُّهور[6]، فدلَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 188.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 188.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 188.
(4) القنوجي، فتح البيان: 14/ 329.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 426.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (بين).

على أنَّه يُكلِّمهم بلغةٍ يَعْرِفونها، ويَفْهَمونها[1]، وجاء به على هيئَةِ اسم الفاعل للدَّلالة على أنَّ أمرَ الدَّعوة بيِّنٌ ظاهِر، بحيثُ إنَّه من شدَّة وضوحِه مُظهِر لِما يتضمَّنه مِن الحقِّ[2].

دلالةُ حذْفِ مُتَعَلَّق ﴿نَذِيرٌ﴾:

حَذَفَ النَّظمُ الجليلُ متعلَّق الإنذارِ، في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾؛ اعتمادًا على دلالة قوله اللّاحق: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ عليه؛ إذِ التَّقدير: إنّي لكُم نذيرٌ بعذابٍ أليم؛ إن لَمْ تُؤْمِنوا[3].

التَّخويفُ من الصَّدِّ والإعراضِ عن الإيمانِ والتَّوحيدِ

مَعْنى ﴿أَنِ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجَليلُ بـ ﴿أَنِ﴾، في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾، وهي هنا تفسيريَّة؛ لأنَّها مسبوقَةٌ بلَفْظِ الإنذار، وهوَ يتضمَّن مَعْنى القولِ دون حروفه[4]، فجيء بها لكَشْفِ مَضْمونِ القولِ والإنذارِ، وفُسِّر الإنذار بالعِبادَة؛ لأنَّ تَرْكَ ما أنْذَرَهُم بسبَبِه مِنَ الكُفْرِ لا يُغْنيهم إلّا بالإيمانِ بوَصْفِه مخلِّصًا مِن عواقِبِ الإنذارِ[5].

كَشْفُ مضمونِ الإنذارِ مَدْعاةٌ للاعتبارِ

دلالَةُ التَّعبير بفِعْلِ الأمْرِ ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾:

عبَّر النَّظم الكريم بفِعْلِ الأمر ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾؛ للدَّلالة على الوجوب القطعيِّ، لا على مجرَّد النُّصح أو الإرشاد، وهو يشمَل جميعَ الواجبات والمندوبات من أفعالِ القلوب والجوارح[6]، ويشير الأمرُ بالعبادة إلى أنَّهم أشركوا باللهِ تعالى، ونَسوا عبادتَه على وجْهِ التَّوحيد، وانصرفوا إلى أصنامِهم، فجاء الأمرُ تذكيرًا لهُم وصرفًا لهُم عن شِرْكِهم[7].

تقريرُ التَّوحيد وتأكيدُ إيجاب الطّاعة والعبادة

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 541.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 426.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 188.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 188.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 426.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 649.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 188.

دلالة التَّصريح بالاسم الأحسنِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

توحيدُ المعبود وتعظيمُ الذّاتِ الإلهيَّةِ

جاءَ التَّعبيرُ بالاسم الأحسَن ﴿ٱللَّهَ﴾، في قولهِ جَلَّ شأنه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الملكَ الأعظمَ هو الجدير بالعبادة وحدَه دون سواه مِن آلِهَتِكُم، فيجِب عليكم الإخلاصُ له؛ لأنَّه هو الإلهُ الغَنيُّ[1]، ثُمَّ إنَّ سياق الدَّعوة إلى الإيمان والخروجِ من الكفر يَسْتَدعي التَّعبيرَ بالاسم الأعظمِ الجامع لأوصاف الكمالِ، المنزَّه عن صفاتِ النَّقص، المستحقِّ للعبادةِ والإجلالِ.

بلاغةُ التَّلميح في الآية:

وَعْظُ المُعاصرين بالعِبرةِ مِنَ السّابقين

ألمح النَّظم الجليلُ بحال المُشْركين من قوم نوحٍ ﷺ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾، إلى حال مُشْركي مكَّة، للمُشابهَة بينَهم وبين حال قوم نوحٍ، تمثيلًا لهُم بهِم[2]، وموعظةً لَهُم أن يَحِلَّ بهم ما حلَّ بالسّابقين.

دلالَةُ عَطْفِ التَّقوى على العبادةِ:

تكاملُ العبادَةِ والتَّقوى في المنهج القويمِ

عَطَفَ النَّظم القرآنيُّ التَّقوى على العبادة، في قوله ﷻ: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾، فجَمَعَ بين الأمر بالعبادةِ والأمرِ بالتَّقوى؛ لتكميل مُقْتَضى العبادةِ، فهو لا يتمُّ إلّا بالخوف من عذابِه واجتنابِ مَحارِمه[3]، فكمالُ العبوديَّة لا يتحقَّق إلّا إذا اقتَرَنَت بتَرْكِ المَعاصي واتِّقاء غضَبِ اللهِ تَعالى؛ بألّا يُبادرَ إلى حركةٍ ولا سكونٍ إلّا في طاعته؛ وذلكُمُ العَمَلُ الواقي من كلِّ سوء[4].

دلالَةُ تقديمِ عِبادةِ الله تَعالى على تَقْواهُ:

العبادة أصلٌ، والتَّقوى ثمرَتُها

قدَّم النَّظم الجليل العبادةَ على التَّقوى، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾؛ لأنَّ العبادةَ هي الأصلُ الجامع الذي تُبنى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 427.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 188.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 245.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 427.

عليه التَّقوى، فهي أساسٌ لها، فإنَّ العبادة تورثُ خشيةَ اللّهِ تَعالى وتعظيمَه، فجاء التَّرتيبُ في الآية؛ ليؤكِّد أنَّ التَّقوى ثمرةُ العبادَةِ.

دلالة عطف الطّاعة على التَّقوى:

طـاعـةُ المبـلِّـغ أساسٌ للعبادَةِ والتَّقوى

عطف البيانُ القرآنيُّ طاعةَ الرَّسول - ﷺ - على الأمر بِتَقْوى اللّه تعالى، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾؛ لأنَّه لا سبيلَ إلى معرفةِ أصولِ عِبادَتِه وكيفيَّة تَقْواهُ إلّا بطاعَةِ رسولِه ﷺ[1]، وفي تخصيص ذِكْرِ الطّاعة مع أنَّه داخلٌ ضِمْنَ الأمر بالعبادةِ والتَّقوى تأكيدٌ على وُجوب طاعتِه ومبالغَةٌ في تقريرِ ذلكَ[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بفِعْلِ الطّاعة ونسبتِهِ إلى ياءِ المتكلِّم:

تـأكـيـدُ وسـاطَـةِ الـــرُّسُـــلِ في التَّبليغ

جاءَ التَّعبيرُ بفِعْلِ الطّاعة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾؛ للدَّلالة على الامتثالِ إلى ما أمَرَهُم بهِ، ونهاهُم عنه، من العبادة والتَّوحيد والتَّقوى، ونسَبَ تلك الطّاعة إلى نفسِه؛ لأنَّه هو المُبَيِّن للرِّسالةِ ومُبَلِّغُها، ولأنَّ الطّاعة قد تكون لغيرِه تَعالى بخلافِ العبادَةِ[3]، وأصلُ ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: وأطيعوني، فحُذِفت الياءُ تخفيفًا، والكسرةُ على النّون دليلٌ عليها، وفي حذْفِها أيضًا مراعاةٌ للفاصلَةِ قبلها: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، والفاصلةِ بعدها: ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

سِرُّ التَّعبير بالفعل ﴿يَغْفِرْ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

مغفرةٌ متجدِّدة بـوَعْـدٍ مشروطٍ بالطّاعة

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بالفعل ﴿يَغْفِرْ﴾ مجزومًا، في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰٓ﴾؛ لأنَّه وقع جوابًا عن فِعْلِ الأمر ﴿ٱعْبُدُواْ﴾ - وما عُطِفَ عليهِ من أفعالٍ تبَعٌ - في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾، فجُزِم؛ لأنَّه وقع في جوابِ طلَبٍ، والتَّقدير: إنْ تفعلوا ذلك؛ يغفرِ اللّهُ لكم[4]، وعبَّر بالمغفرة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 427.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 649.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 541.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 189.

لدلالتها على السَّتر والتَّغطية وعدم المؤاخذة[1]، أي: إنَّه يستر عنهم الذُّنوب، ويزيلها، ولا يعاقبهم عليها، وجاء التَّعبير بالمضارع؛ للدَّلالة على تجدُّد الغفران ودوامه بتجدُّد ذنوبهم.

دلالَةُ التَّعبير بشِبْهِ الجُمْلَةِ ﴿لَكُم﴾:

وعـدٌ مـؤكَّـد لا يُنالُ إلّا بالطّاعةِ

عبَّر النَّظم الكريمُ بِشِبْهِ الجملة ﴿لَكُم﴾، في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ مغفرة الذُّنوب وعْدٌ لهم بإزالة ما يضرُّهم في الآخرة من الذُّنوب[2]؛ كرمًا منه وإحسانًا ولُطفًا، فهُم المقصودون مِن ذِكْرِ المغفرة وإيقاعها جوابًا عن الأوامر السّابقةِ.

معنى ﴿مِّن﴾:

الإيمان يُجُبُّ ما قبلَه لا ما بَعْدَهُ

حرفُ الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، دالٌّ هنا على التَّبعيض، وعُبِّر به؛ لأنَّ الإيمانَ يَجُبُّ ما قبله، أمّا ما بعده؛ فإنَّهم محاسَبونَ عليه، أي: يَغْفِر لكُم بعضَ ذُنوبِكُم، وهيَ ما سبقَ الإيمانَ[3]؛ وذلك "لأنَّ مَن آمن؛ فإنَّه يصير ما تقدَّم من ذنوبه على إيمانه مغفورًا، أمّا ما تأخَّر عنه؛ فإنَّه لا يصير بذلك السَّببِ مغفورًا، فثبت أنَّه لا بدَّ هاهنا مِن حرفِ التَّبعيض"[4]، ويصحُّ على معنى تَماثُل شريعة نوحٍ مع شريعةِ الإسلام؛ فيجبُّ الإيمانُ ما قبله، أنْ تُعدَّ (مِنْ) صِلَةً للتَّوكيد، وهو من زيادتها في الإيجاب[5]، ويجوز أن تكون للتَّعليل، فتتعلَّق بأفعال الأمر الثَّلاثة: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾، باعتبار أنَّها مجابَةٌ بالفِعْلِ ﴿يَغْفِرْ﴾.

دلالَةُ جَمْعِ الذُّنوب:

آثر النَّظم القرآنيُّ التَّعبيرَ عن الذُّنوب بصيغة الجَمْعِ، في قوله

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (غفر).
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 246.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 280 - 281، وينظر: ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 413.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 650.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 189.

جلَّ شأنه: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه يغفِر جميعَ الذُّنوب التي تسبِقُ الإيمان[1].

دلالَةُ إضافَةِ الذُّنوب إلى ضميرِ المُخاطَب:

تقرير الذُّنوب لتخصيص المَغْفِرَة

أضاف النَّظم الجليلُ الذُّنوبَ إلى ضمير المخاطَبين، في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على مغفرةِ ذُنوبِهم الخاصَّة بهم، وفيه تقرير لهُم بهذه الذُّنوب، فهي ذنوبٌ معروفةٌ منسوبَةٌ إليهم.

دلالَةُ عَطْفِ تأخير الأجَلِ على المَغْفِرَة بالواوِ:

امتدادُ الفَضْلِ من الدُّنيا إلى الآخِرَة

عَطَفَ البيانُ القرآنيُّ التَّأخيرَ في الأجلِ على مغفرة الذُّنوب، في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه وعَدَهُم وعْدَين: وعدًا بخَيْرٍ دنيويٍّ، وهو طول البقاء في الدُّنيا، ووعدًا في الآخرة بمغفرة الذُّنوب[2]، وهذا من كمال الإنعام، وقد جاء العطفُ بالواو؛ للدَّلالة على أنَّهما وعْدانِ متغايرانِ مُسْتَقِلّان، وهذا مِن عظيمِ الامتنانِ.

دلالَةُ التَّعبير بالتَّأخير:

وعدُ البقاءِ والإيفاء بتمامِ الأجَلِ

جاءَ التَّعبيرُ بتأخير الأجل، في قوله سُبحانَهُ: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾، وعدًا لهم؛ إذا آمنوا، وهو دالٌّ على تأخير العمُر والمدِّ فيه، أي: يمدُّ في أعماركم إلى الأجل الذي قدَّره اللهُ تعالى لكم[3]، وهو مِنَ النِّعَم العظيمة؛ لأنَّ في جبلَّة الإنسان حبَّ البقاءِ في الحياة على ما فيها من عوارضَ ومكدِّراتٍ[4].

مَعْنى ﴿إِلَىٰٓ﴾:

المُكْثُ في الدّيار إلى مُنْتهى الأعمارِ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بحرف الجرِّ ﴿إِلَىٰٓ﴾، في قوله جلَّ شأنه:

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 246.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 189.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 29/ 79.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 189.

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وهو حرف دالٌّ على مُنْتهى الغاية، أي: يمدُّ أعمارَكُم إلى مُنْتَهى ما قدَّره الله تَعالى لَكُم، فلا يُعاقِبُكُم في الحياةِ الدُّنيا بالاستِئصالِ[1].

دلالَةُ تنكيرِ لفظ ﴿أَجَلٍ﴾:

عمومُ الإنعامِ يشمَلُ كلَّ الأنام

آثر النَّظم الكريمُ التَّعبيرَ عن الأجل منكَّرًا، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ للدَّلالة على عموم آجال المُخاطَبين، فهو متعدِّد بتعدُّدِهم، فالتَّنكيرُ دالٌّ على العموم[2].

بلاغَةُ استعارَةِ التَّسميَةِ للتَّعيين:

تعيينُ الآجال وتحديدُ الأعمارِ

عبَّر النَّظمُ الجليل بتسميةِ الأجَلِ، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ للدَّلالة على أنَّه أجَلٌ مُعَيَّنٌ محدَّدٌ، فالتَّسميَةُ مُستَعارَةٌ للتَّعيين، فشبَّه عدم الاختِلاطِ بينَ أصحاب الآجالِ بتعيين النّاسِ بالتَّسمية، فلا يختَلِطُ أحدٌ بآخرَ، فلكلِّ شخصٍ أجلٌ معيَّن، كما أنَّ له اسمًا يعيّنه عَن سِواهُ، والمَعْنى: يؤخِّركُم، فلا يُعاقِبُكُم في الدُّنيا، فيَبْقى كلُّ أحَدٍ مِنْكُم إلى أجلِه المعيَّن المحدَّدِ لَهُ[3].

بلاغَةُ فَصْلِ الجُمْلَة وتأكيدِها:

لا تأخيرَ للأجلِ وإنْ طالَ الأمَلُ

فصل النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّها سيقت لتَعْليلِ الرَّبط بين الأمر وجوابِه، في قوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ لأنَّ معنى ذلك الرّابط: إنْ لم تعبدوا اللّهَ تعالى، وتتَّقوه، ولم تُطيعوني؛ فإنَّه لن يَغْفِرَ لكُم، فعلَّلَ هذا الرَّبط بالجملة، فإنَّه لا يؤخِّر الأجل؛ لأنَّ الأجل الذي قدَّره الله تعالى، لا يُؤخَّر، ويحتمل أن تكون الجملةُ فُصِلَت؛ لكونِها استئنافًا

(1) الخازن، لباب التأويل: 4/ 344.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 190.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 190.

بيانيًّا، نشأ عن سؤالٍ، فكأنَّه قيل: لماذا يؤخِّرهم إلى أجلٍ معيَّن محدَّدٍ دون أجلٍ مستمرٍّ ودائم؟ فقيل: إنَّ أجل الله تعالى لا يُؤخَّر[1]، وإنَّما أكَّد الجملة؛ لأنَّهم لشدَّةِ انْهماكِهم بحُبِّ الدُّنيا كانوا كأنَّهم شاكّون في مجيء المَوْتِ[2].

دلالَةُ إعادَةِ ذِكْرِ الأجَلِ:

الموت والاستئصال نوعان من الآجال

أعاد النَّظمُ القرآنيُّ ذِكْرَ الأجَلِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾، وهو غيرُ الأجَلِ المذكورِ في قوله تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ لأنَّ المرادَ به الأجلُ المتعلِّق باستِئصالِ الأمَمِ بالعذاب، فهو أجلُهُم جميعًا حين يحلُّ بهم العذابُ[3].

دلالَةُ إضافَةِ الأجلِ إلى اللهِ تعالى:

تمييزُ الأجل الإلهيّ القاهر لاستئصال الأمم

أضاف البيانُ القرآنيُّ الأجلَ إلى الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۚ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ للإشارَةِ إلى أنَّه ليس الأجلَ المعتادَ، الذي يتناولُ كلَّ فردٍ، بَل هو الأجلُ الذي عيَّنه اللهُ تعالى للأمم باستئصالهم حالَ إصْرارِهم على الكُفْرِ[4].

دلالَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِذَا﴾ دون (إنْ):

حتميَّة حلول الأجل ويقينُ وقوعِه

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بأداة الشَّرط ﴿إِذَا﴾ دون (إنْ)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾؛ للدَّلالة على حتميَّة الحدوث[5]؛ لأنَّ (إذا) في أصلِ وضْعِها دالَّةٌ على تحقُّق الشَّرْطِ والجَزْمِ بهِ، وهكذا هو هُنا؛ فإنَّ مجيء الأجل بالاستئصال للأمم الكافرة حقيقةٌ لا شكَّ فيها، وليس افتراضًا، بخلافِ (إن) فإنَّها تدلُّ على الشَّكِّ في وقوعِ مدخولِها، وهي لا تُناسِبُ هذا المقامَ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 190 - 191.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 30.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 191، ومحمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 29/ 182.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 191.
(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 29/ 182.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالمَجيءِ:

تصويرُ مجيءِ عذابِ الله تعالى الشَّديدِ

عبَّر النَّظم الجليل بالمجيءِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾؛ لدلالة المجيء على القوَّة والشِّدَّة والمَشَقَّة[1]، فكان التَّعبيرُ به دالًّا على أنَّ حلولَ العذابِ مُقْتَرِنٌ بالشِّدَّة والصُّعوبة؛ لِما يلحَقُ القومَ مِن كَرْبٍ وهَوْلٍ عظيمٍ.

ويُطلَقُ فعل المجيء أيضًا اعتبارًا بالحصولِ على خلافِ فِعْلِ الإتيان الَّذي قد يُطلَقُ باعتبار القَصْدِ، وإنْ لم يكنْ منه حصولٌ[2]، وأجلُ الله تعالى في هذا السّياق واقعٌ متحقَّقٌ لا محالةَ بأمارةِ القَيْدِ ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾.

دلالَةُ إثباتِ التَّأخيرِ ونفيِه:

الإيمانُ يدفَعُ أجلَ الأمم بالاستئصالِ، وأمّا أجلُ الأفرادِ؛ فإنَّهُ لا يتأخَّر

جاءَ التَّعبيرُ عن التَّأخير بالإثباتِ مرَّةً، وبالنَّفي مرَّةً أخرى، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾؛ لأنَّ المراد بالأوَّل: أجَلُ الموتِ بالنِّسبة للأفراد، فيشمل كلَّ واحدٍ مِنْهُم، والمراد بالآخَر: أجلُهُم جميعًا باستئصالِهم بالعذاب[3]، قال الفخر الرّازيُّ: "قضى اللّهُ مثلًا أنَّ قوم نوحٍ إن آمنوا؛ عمَّرهم اللّهُ ألفَ سنَةٍ، وإن بَقوا على كُفْرِهم؛ أهْلَكَهُم على رأسِ تسعمئة سنَةٍ، فقيل لهم: آمِنوا؛ يؤخِّركم إلى أجلٍ مُسَمًّى، أي: إلى وقتٍ سمّاه اللّهُ، وجَعَلَه غايةَ الطّول في العمر، وهو تمام الألف، ثُمَّ أخبر أنَّه إذا انقَضى ذلك الأجل الأطول؛ لا بدَّ من الموتِ"[4].

دلالة التَّعبير بـ ﴿لَوْ﴾:

لا عِلْمَ للجاهل يَـقـيـهِ سـوءَ العواقبِ

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بأداة الشَّرط ﴿لَوْ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وهو حرف يُستعمَل لِما كان سيَقَعُ

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 28/ 95.
(2) الراغب، المفردات: (جاء).
(3) ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 366.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 650.

لوُقوعِ غيره[1]، أي: لو كان لكُم عِلْمٌ؛ لعَرَفْتُم أنَّ أجلَ اللهِ تعالى لا يؤخَّر، ولكنَّكم مُنْهَمِكون في الدُّنيا حتّى بلغَ الأمرُ أنَّكم مثلُ الشّاكِّ بالمَوْتِ[2].

دلالَةُ التَّعبير بفِعْلِ الكونِ ماضيًا:

عُبِّرَ بفعل الكونِ ماضيًا، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ للإيذانِ بتأكيدِ انتفاء عِلْمِهم وتحقُّقه، أي: ليسَ لَكُم عِلْمٌ مِنَ الأصل في شأنِ حقيقَةِ الأجَلِ[3].

دلالة التَّعبير بالمُضارِعِ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾:

تحقُّق العلمِ المتجدِّد يقي المهالكَ

جاءَ التَّعبير عن العلم بالفِعْلِ المُضارع، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على التَّجدُّد والاستمرار، أي: ليس لكم علمٌ يتجدَّد في الأوقات، أي: "لو كان العلمُ أو تجدُّده وقتًا ما في غرائزكُم؛ لعَلِمْتُم تنبيهَ رسولِكُم ﷺ أنَّ اللهَ يفعل ما يشاء، وأنَّ الأجل آتٍ لا محالة، فعَمِلْتُم للنَّجاة، ولكنَّكُم تعملونَ في الانهماكِ في الشَّهوات عملَ الشّاكِّ في الموت"[4].

دلالَةُ حَذْفِ جوابِ ﴿لَوۡ﴾:

حذف النَّظمُ الكريمُ جواب ﴿لَوۡ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ لدلالة السّياق عليه، أي: لو كنتُم تعلمونَ ذلكَ؛ لعَبَدتُم اللهَ تعالى، وآمنتُم به، واتَّقيتُموه، وأطعتُم رسولَهُ[5].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإرسال والبعثِ:

الإرسالُ أخصُّ من البعثِ، فهو يتضمَّن رسالَةً

البَعْثُ أعَمُّ من الإرسال؛ لأنَّه "يجوز أن يبعَثَ الرَّجلُ إلى الآخر لحاجَةٍ تخصُّه دونك ودون المبعوثِ إليه، كالصَّبي تَبْعَثُه إلى المكتب، فتقول:

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 181.
(2) الخطيب، السراج المنير: 4/ 390.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 192.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 429.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 294.

بَعَثْتُه، ولا تقول: أرسلته؛ لأنَّ الإرسال لا يكون إلّا برسالةٍ، وما يجري مَجراها"[1]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾، آثر التَّعبير بالإرسال؛ لأنَّ نوحًا عليه السلام حُمِّل رسالةً إلى قومِه؛ إذ هو نبيٌّ ورسولٌ.

التَّقوى والخَشْيَة:

الخَشْيَة: خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ، وأكثرُ ما يكون ذلك عن عِلْم بما يُخْشَى منه، ولذلك خُصَّ العلماءُ بها، في قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28][2]، فهي خوفٌ مخصوص، يلزَمُه التَّعظيم، أمّا التَّقْوَى؛ فهي جَعْلُ النَّفس في وِقايةٍ ممّا يُخاف، والتَّقوى في عُرف الشَّرع: حِفْظُ النَّفس عمّا يؤثم، وذلك بترك المحظورِ[3]، فالتَّقوى احتراز ممّا يُخْشى منه، والخشيةُ شعورٌ بالخَوْفِ، وفي الآية الكريمة استُعمِلَ لفظُ التَّقوى؛ لأنَّه أمَرَهُم بفِعْلٍ يَجتَنِبون به العقابَ، وهو طاعَتُه وعبادةُ اللهِ تَعالى وحدَهُ ونبذ الشِّرك، فهي إجراءٌ وصيانةٌ للنَّفس ممّا يُخْشى مِن عاقِبَتِه.

الخشيةُ شعور بالخوفِ، والتَّقوى إجراءٌ بتَرْكِ ما يُخاف مِن مآلِهِ

الذُّنوب والأوزار:

أصل الذَّنب يدلُّ على مُؤَخَّرِ الشَّيءِ، ومنه: ذَنَبُ الدّابة، ويُعبَّر به عن المتأخِّر والرَّذل، والذَّنْبُ في الأصل: الأخذ بذنَبِ الشَّيء، وسُمّي الذَّنْبُ اعتبارًا لِما يحصُل من عاقبته[4]، أمّا الوزر؛ فهو الذَّنب الثَّقيل، سمّي بذلك تشبيهًا لَهُ بالجَبَلِ في ثِقَلِه؛ لأنَّه يُثْقِلُ صاحبَه[5]، وجاء التَّعبيرُ في الآية بالذُّنوب؛ لأنَّه أعمُّ مِنَ الوزر، فهو يتعلَّق بالصَّغير والكبير، والوزرُ يختَصُّ بالثَّقيل منها حسبُ، فدلَّ على أنَّ غفران ذنوبهم يشمَلُ صغيرَها وكبيرَها.

الوِزْرُ أخصُّ من الذَّنب، فهو ذنبٌ ثقيل، والذَّنبُ عامٌّ

(1) العسكري، الفروق، ص: 289.
(2) الراغب، المفردات: (خشي).
(3) الراغب، المفردات: (وقى).
(4) الرّاغب، المفردات: (ذنب).
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (وزر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والستون،
سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 64 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-38-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 64 : المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-38-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6817852 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"